المبحث الرابع

عالم الأحلام وتجربة الواقع

يُعدُّ الحلم جزءاً مهماً من الحياة العقلية للإنسان، ويعمل جنباً إلى جنب مع التفكير الواقعي. والحلم وسيلة لتجنب الشدة التي يفرضها الواقع على وعي الفرد، كما أنه يفيد في إرضاء بعض الدوافع التي لا يمكن إرضاؤها في الواقع[1].

معروف أن الأحلام تنقسم على قسمين: أحلام النوم، وأحلام اليقظة، وأن التي يكثر منها الشاعر المكفوف الأندلسي، أحلام اليقظة، لارتباطها بالخيال، وأن هذه الأحلام لها الأثر الكبير (في توجيه أعمال الفرد إلى الطموح، وإعمال الفكر والسعي إلى المجد؛ بل إن أحلام اليقظة كثيراً ما تلهم الفنان في العلم والأدب كشف بدائع الفكر وروائع الخواطر. وتوحي إليه بالأساليب الجديدة الشيقة وتفتح أمامه عالم الجمال والرفعة وهي تجعل من الخيالات السلبية نسائم طيبة عطرة للفكر والحقيقة، وإذ تنشط الخواطر وتنعشها وتنقيها وتنمقها وتفتح أمامها أجواء جديدة في الإلهام السامي الدقيق. يظهر جلياً في شعر الشعراء وأطباع الكتّاب)[2].

ومن الأمور الأخرى التي تجعل الشاعر المكفوف يحلم أحلام اليقظة العاهة؛ لأنها توفر للمكفوف قدراً كبيراً من الانطواء، والتأمل وسعة التخيل والتفكير في الذات، لأن (الكفيف يتعرض كثيراً إلى فقدان النوم أو فقدان النوم في ميعاده المناسب)[3].

إن للأحلام أثراً واضحاً في إبراز ما يكنه الشاعر المكفوف من المكبوتات – اللاشعور – لذا هو يظهره في أحلامه، و(الأحلام هي الصورة "الحقيقة" التي تكشف لنا "واقع" تلك الخبرات والرغبات والمخلفات في ذلك العالم المجهول – اللاشعور -)[4].

---

(1) ينظر: النفس انفعالاتها وأمراضها وعلاجها: 1/ 67.
(2) أثر كف البصر على الصورة عند أبي العلاء المعري: 33.
(3) رعاية المكفوفين: 111.
(4) الإبداع في الفن: 101.

إن الشاعر المكفوف يبتعد عن الواقع؛ لأنه لا يستطيع أن يتخلى عن إشباع غرائزه، وهو يسمح لرغباته الطموحة بان تؤدي أثراً أكبر في عمليات التخيل، ومن هنا يكون التخلي عن الواقع واستبدال غيره به وسيلة لحل الصراع النفسي[1].

وبهذه الصورة يكون للحلم في شعر المكفوفين، وظيفتان: الأولى: أن يمنح الرؤيا البصرية في القصيدة إيحاء بوجود رؤيا داخلية. والأخرى: يقوم بتوفير الغطاء اللازم للحديث عن أمور لا تتوافر للشاعر أن يتحدث عنها في إطار الظروف الاعتيادية.

وعلى الرغم مما قيل في الأحلام – أحلام اليقظة طبعاً – (يظل "الوقائع" الواقع سحرها في الفن)[2]، ويرى الدكتور عبد المحسن طه بدر (أن كل عمل أدبي رائع يفترض فيه أن يصدر عن رؤية متكاملة للواقع)[3]، ويرى بعض الباحثين النفسيين أن كتابة القصيدة لا تعدو في حقيقتها عملية حلم يقظة[4].

ومن هذه الآراء نستنتج ارتباط الحلم بالواقع ارتباطاً تكاملياً، ولا يمكن الفصل بينهما، إذ إن الشاعر المكفوف يتصور ما في الواقع عن طريق حواسه، كالسمع والشم واللمس والذوق، والنظر إلى الأشياء بخياله... وغير ذلك.

فيعكس ما أدركه بهذه الحواس عن طريق الأحلام فتتكون الصور الشعرية والفنية والأدبية في أشعاره.

فالشاعر حين يريد كتابة القصيدة ينصرف إلى ذاته والى مخيلته وأحلامه ليستبعث ما في مخزونه من رؤى وأفكار. إنه "يهندس" عالماً على طريقته،ويصور أحداثاً بما يمليه طموحه وحقه في التصوير. إنه يحقق ذاته المكبوتة في قصيدة. فتكون القصيدة بذلك حلماً يقظاً مفرغاً لكل طموح مكفوف باحباط، وتعزية لكل ممارسة مشلولة بضوابط أو نواميس[5].

---

(1) ينظر: الأسس النفسية للإبداع الأدبي (في القصة القصيرة خاصة)، تأليف: د. شاكر عبد الحميد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992م: 54؛ ينظر: النفس انفعالاتها وأمراضها وعلاجها: 1/ 68.

(2) المفكرة النقدية، د. بشرى موسى صالح، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد، ط1، 2008م: 142.

(3) حول الأديب والواقع دراسة تطبيقية، د. عبد المحسن طه بدر، دار المعرفة، القاهرة، ط1، 1971م: 10.

(4) ينظر: نقد الشعر في المنظور النفسي: 58.

(5) ينظر: نقد الشعر في المنظور النفسي: 58.

لقد اشرتُ من قبل إلى أن المعوق يستعيض بأدوات وأشياء أخر يستعين بها على الحياة. ومن هذه الاستعاضات قوة المخيلة وقوة الحس الجسدي والروحي، فقد يتخيل ويحلم المكفوف من السماع، لذا يصف الأشياء كما يصفها المبصر، وقد يكون للأعمى رهافة التخيل والتصوير بحسب ما قرئ على مسمعه فينشد للاخضرار لأشعة الشمس وللأشياء كلها وكأنه مبصر ورسام يرسم ما يراه بعين الفكر، كما في قول يحيى بن هذيل في السراب، يقول:

(من الطويل)

ومطرد الأعلام خالٍ سرابه ... على الأَمعز العالي برودٌ تنشرُ(*)
كأن روابيه إذا اتزرت به ... رجالٌ ببيض الريط ظهراً تأزروا(**)(1)
تأزروا(**)(1)

حظي ابن هذيل بمخيلة واسعة وعظيمة، وهذا ما لمسناه في أشعاره، فعندما يصف الشيء يعطينا صورة مبتكرة عنه، تجعلنا نتصور ما يصفه ونشعر به ونتلمسه أحياناً أخرى.

فقد أخذ من السراب، ليصفه كما سمع عنه وحلم به فراح يصوره كما حلم به – بأحلام اليقظة – وكأني به يرى بحدسه ما يشعر به، فيصفه لنا فيعلم بالحدس أن السراب حلم يراود العطشان في الصحراء.

وله في المعنى نفسه: **(من الكامل)**

مُتوسِّطٌ جَوْزَ الفَلاةِ كأنَّهُ ... ثمِلٌ يَميدُ به الطَّريق المَهْيَعُ(***)
وترى بها جسم السَّراب كأنَّما ... نزلتْ به الحُمَّى فما إن تُقْلِعُ(1)

(*) الأمعز: المكان الغليظ الصلب الكثير الحصى ومثله المعزاء. (الصحاح، مادة: أمعز).

(**) الريط: الملاءة إذا كانت قطعة واحدة. وقيل: كل ثوب لين رقيق. وقال الازهري: ولا تكون الريط إلا بيضاء، واستعار الشاعر البرود والرياط من الملابس التي يلبسها الناس؛ لبيان شكل السراب وهو يمر على الروابي والأمكنة بجامع البياض. (ينظر: تهذيب اللغة:محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي ، أبو المنصور (ت370هـ)، تحقيق : محمد عوض مرعب ،دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط1 ،2001م: باب الراء والطاء؛ ولسان العرب: ريط).

(1) شعر يحيى بن هذيل: 88.

(***) جوز كل شيء: وسطه. (لسان العرب: جوز). والأرض الهيعة: الواسعة، وطريق مهيع: واضح واسع بيّن. (لسان العرب: هيع).

يطمح ابن هذيل بهذه الأبيات إلى أن يثبت وجوده بين المبصرين، ويرفع الشبهة عنه؛ لأنه يأخذ من الصور المرئية البصرية التي يتوهم بها المبصر أحياناً؛ ولكنه يصر على أن يخوض هذا الصراع النفسي، ويخرج منه بنتيجة.

إن أحلامه واسعة، ودقيقة، فهو يستطيع أن يُفهم الجميع بأن ما يحس به هو حقيقة وليس وهماً.

ويعاود ابن هذيل الكرة في السراب ووصفه. حين قال في السيف: **(من الكامل)**

أوحى(*) وأوجز من إعادة نظرة ... في وجه معشوقٍ يصدُّ ويبخلُ
ويريك أن على يدي مستله ... نسجاً من الآل(**) الذي يتخيّلُ(2)

يبدو أن هذه اللفظة – السراب – مثلت نفسية الشاعر فلفظة "الآل" التي تكون أشبه بالسراب والوهم، تشعرنا بأن الدنيا حلم، وسرعان ما ينتهي هذا الحلم.

إن هروب الشاعر المكفوف إلى الأحلام والأخيلة، يدل على انه يعاني الواقع الذي هو أكبر مشاكله، فالواقع عنده يمثل الألم والحزن والعاهة أيضاً، لذا يلجأ إلى الأحلام ليستريح من الواقع.

وقد لجأ ابن هذيل إلى الأحلام ليترك الواقع المعيش، حين رسم صورة لحبيبته وهي تودعه، فقال: **(من الكامل)**

مروا كما مضت السهام فلم تعج(***) ... نحوي ركابهم ولم يتوقفوا
ورأيت محبوبي فمال بجيدهِ ... نحوي كما مال القضيب الأهيفُ
حيران من وجل البكاء كأنه ... نشوان قد غلبت عليه القرقف(*)

(1) شعر يحيى بن هذيل: 96.
(*) أوحى: أسرع (الصحاح: وحى).
(**) الآل: السراب (لسان العرب: الل).
(2) شعر يحيى بن هذيل: 113.
(***) عاج: انعطف، وعاج بالمكان: مر به. (جمهرة اللغة: عوج).
(**) القرقف: الخمر، سميت بذلك لأنها ترعد شاربها. (الصحاح: قرقف).

فعصـــيت إقـــدامي فمـــا ودّعتُـــهُ إلا مخالســـة وعيـــريَ ترسُـــفُ [1]

لا تقتصر صورة الأحلام على بث المشاعر النفسية فحسب، وإنما تشمل المظاهر الطبيعية ومجالس الأنس، ومواقف الحب وغيرها. ونرى ابن هذيل في هذه المقطوعة قد استعاض الحلم بالواقع للتنفيس النفسي عن رغبته التي لم يحققها بالواقع... لذا لجأ إلى الحلم لإشباع حرمانه، وإعطاء المجال للأحاسيس المكبوتة في اللاشعور للظهور والتعبير عن الذات وما يدور بخلجاتها.

ويتمنى ابن هذيل أن يزوره طيفها ويشاهد ما يعانيه الشاعر. يقول: **(من الطويل)**

ألا عـودة مـن طيفـه فيـرى حـالي ألا يـا أَدّكـاري لكـرى لـي أتـى تـالي
يكـاد يضـيق الجـو مـن عظـم زفرتـي وتهفو نجوم الليل من فرط اعوالي
أبـى غيـر تعـذيبي ولـو أمـر الـردى أطـاع ولكـن فعلـه هـو إنكـالي[2]

يرسم ابن هذيل بهذا التمني صورة موهومة من صور الحالم عن عالم لا يتحقق[3]، لذا شعر بأن الواقع يخنقه ويحطم أحلامه، اذ يقول (يكاد يضيق الجو من عظم زفرتي).

تمثل هذه الصورة واقع الشاعر المكفوف الأندلسي، الذي يطمح بحلمه إلى أن يصل إلى الإبصار، والمرأة والسعادة، لعله يخرج من أزماته المتراكمة.

ونراه يفرح عندما يمر به طيفها أو خاطرها، أو أي شيء يذكّره بها. يقول: **(من الخفيف)**

مـرَّ بـي خـاطرٌ يكـاد مـن العُجـ ـب بـه ان يـراع فـي ريعانـهِ
فـي مـلاءٍ كأنـه وهـو فيهـا ورد خديـه فـي جنـا سوسـانه[4]

(1) شعر يحيى بن هذيل: 98.
(2) م. ن: 115.
(3) ينظر: نقد الشعر في المنظور النفسي: 60.
(4) شعر يحيى بن هذيل: 127 – 128.

يمتلك ابن هذيل قدرة فائقة على تصوير أحلامه إذ ينقلها إلينا بطريقة مغايرة عن قرنائه من المكفوفين، إذ إن أشعاره محملة بالعواطف الصادقة والأحلام المعبرة، التي يكون فيها نكهات حقيقية، مطرزة بالواقع المعيش.

ويأتي الحصري القيرواني ليصور أحلامه والصدمات والعقبات التي تعود به إلى الماضي؛ لان المستقبل عنده هروب ذاتي لمعاناته من العاهة، والمجتمع، والمرأة. وغيرهم. يقول:

(من البسيط)

لئن بعدتم وحال البحر دونكم ... لبين أرواحنا في النوم زورات
ما نمت إلا لكي ألقى خيالكم ... وأين من نازح الأوطان نومات[1]

إن الرؤى التي أخبر عنها شاعرنا تأتيه في أثناء النوم كما يبدو، فهي أحداث وصور مستقاة من معاني الحياة حتى إذا ما استيقظ من النوم علم أن كل الذي رآه ليس إلا صور ذهنية لا تمت إلى الأحداث اليومية بصلة واقعية غير أنها قد تكشف عن صلة ما بواقع من ماضي حياته أو من أحداث بيئته أو من أفكار وخواطر راودت ذهنه[2]، فهو على الرغم من البعد المكاني بينهما، إلا أنه يراها في النوم بوساطة الأحلام وإن كان نومه يكتظ بالكوابيس والأحلام المزعجة، فهو لا يستطيع النوم براحة؛ لأنه بعيد عن وطنه، بعيد عن حبيبته، بعيد عن ذاته، لذا يجبر نفسه على النوم لكي يرى أحبابه وديارة.

إن العامل النفسي الذي شكلته الغربة على الحصري كبير، ومؤثر، فقد جعله في قلق دائم، حرمه النوم، فضلاً عن غمّ كبير ضيّق عليه حياته، إلا أنه يحلم أن يعود إلى دياره، ومكانه، ويتمنى تلك العودة ولو حلماً.

(1) أبو الحسن الحصري القيرواني: 125.
(2) ينظر: أثر كف البصر على الصورة عند أبي العلاء المعري: 99.

وقد رأيناه يبعث مع خياله دموعه إلى أحبابه مع النسيم حين يهب. ويقول:

(من الطويل)

بعثت رسولي: الخيال الذي سرى اليك بدمعي، والنسيم الذي هبَّا[1]

من الواضح أن أحلام الحصري كثيرة ومتنوعة، فهي تزوره في المنام، واليقظة، ويتعايش معها بعيداً عن الواقع؛ لان الواقع لم يخلف له إلا الحرمان، والبعد عن الأوطان والأحباب. وها هو ذا يصور كيف أن حبيبته زارته في المنام وأطفأت نار شوقه وشفت غليله، لقوله:

(من الطويل)

تراءت لعيني في المنام فأطفأت بزورتها الهوى حين شبت
تمثلتها حتى إذا ما تمثلت طربت كأني قد دعوت ولبت[2]

لقد شغلت أحلام الحصري عقله وفكره وقلبه؛ لأنها ملاذه الآمن الذي يأويه ويحميه من واقعه وعاهته وشعوره بالنقص. وقد جاء بما يثبت هذا الكلام حين قال:

(من الطويل)

جلاء همومي طيفكم يوضح الدجى وإلا فأنفاس الصبا تتأرَّج[3]

إن هموم الشاعر المكفوف كثيرة ومتعددة فهي ترافقه، وتحاصره، لذا جعلته يشكو واقعه المرير، وزمانه القاسي، يقول: **(من الطويل)**

قنعتُ بوصل الطّيف إن قاده الكرى وكيف رقادي والمدامع ما ترقى
قسا قلب دهرٍ حل عقد وصالكم وسد علينا دون وصلكُمُ الطرقا[4]

(1) أبو الحسن الحصري القيرواني: 213.
(2) أبو الحسن الحصري القيرواني: 214.
(3) م. ن: 216.
(4) م. ن: 232.

لم تكن أحلام الحصري كلها للمحبوبة فحسب، وإنما جاءه ما يشغله عن ذلك، وهو موت ولده، كما أسلفت، فقد راودته صورته في الحقيقة، والوهم، في الأحلام والواقع، في اليقظة والنوم. يقول: **(من مخلع البسيط)**

لولا حيائي وقول قومٍ سفه أستاذنا الخليل
لطمت ديباجتي على ابنٍ خيَّل لي أنه قتيل[1]

يشير في هذين البتين إلى كيفية حزنه على ابنه، ولولا الناس لاشتد عليه بكاؤه وللطم الخدود وشق الجيوب.

إن الذي يزيد من حزن الحصري شعوره بأن ابنه مات قتيلاً، وقد زاد حزنه الماً وحرقةً، وزادت عيناه سواداً وظلمةً بعده، لقوله: **(من الطويل)**

يُخيّل لي أنَّ الضّحى بعدك الدُّجى وأنّ الندىَّ القفرُوالأنسَ الوحْشُ[2]

ويتمنى بعد ذلك أن يزوره ابنه في الحلم أو في الواقع، المهم أن يراه، يقول: **(من مخلع البسيط)**

زرني خيالاً وبت ضجيعي حقيقةً أو على المجاز[3]

يصل الحال بالحصري إلى اليأس من أن يرى ابنه حتى في المنام، لقوله: **(من البسيط)**

من أين للعين أن تلقاك في حلمٍ وماؤها كلما كفكفته وكفا[1]

(1) أبو الحسن الحصري القيرواني: 473.
(2) أبو الحسن الحصري القيرواني : 428.
(3) م. ن: 468.

إن الذي سبب الانقطاع في الاتصال ما بين الأب الحي، والابن الميت، الدموع، فهي جارية ليل نهار، مستمرة ما دامت فيها ماء.

إن حالة الحزن والكمد التي يمر بها الحصري عظيمة وكبيرة، وهو لا يريد أن ينسى ابنه، ولن يحاول أن ينساه – في أحلامه – فكان له من الحزن على ابنه ما زاد عن حد عاهته.

وبعد ذلك كله من استرسال للأحلام في مخيلة شاعرنا، يعود إلى الواقع وإلى ما تدعو إليه النفس البشرية بالإيمان الفطري بأن الموت لا بدّ منه، وأن الأحلام وإن كانت جميلة إلا أنها لا تتحقق ولا سيما فيما يتضمنه الماضي، فهو لن يعود ولن يرجع؛ لأن الواقع يجري لا يتوقف ولا يرحم، فهو يحمل في طياته المخاوف والأحزان والمفارقات، لذا يقول الحصري في عدم رجوع الماضي:

(من البسيط)

ما أصدق الناس لو قالوا إذا سُئلوا عن كل عيش مضى، أضغاثُ أحلامِ[2]

أما الشاعر غالب بن عبد الرحمن، فهو يعاني المرأة أيضاً، بل إن هذه المرأة قاسية القلب، إذ جعلت رقيباً حتى على الخيال الذي يزوره في أحلامه. يقول:

(من الكامل)

كيف السلو ولي حبيب هاجر قاسي الفؤاد يسومني تعذيبا

لما درى ان الخيال مواصلي جعل السهاد على الجفون رقيباً[3]

إن استفسار الشاعر المكفوف عن النسيان – السلوّ – شيء يدل على أن الشاعر تُمارس عليه ضغوط نفسية عدة، منها المرأة، فهو يريد أن ينساها أو يدعي

---

(1) م. ن: 410.

(2) أبو الحسن الحصري القيرواني : 367. وللمزيد من هذه الشواهد. ينظر أبو الحسن الحصري القيرواني: (120، 330، 362، 365، 474، 487).

(3) الإحاطة: 4/ 201.

ذلك، لأنه يراها في أحلامه وواقعه، في نومه وفي يقظته، لذا شملت عملية الحرمان كل شيء حتى الأحلام للمكفوف، فهي مقيدة كلها.

ولو وصلنا إلى الشاعر التطيلي لوجدناه يحلم، ويكثر من الأحلام، ليهرب من الواقع؛ ولكن لم تكن أحلامهُ إلا صورة للواقع المرير الذي كان يعيشه. فقال يرثي زوجته: **(من الطويل)**

وأحلام مذعور الكرى كلما اجتلى سروراً رآه وهو في صورة الذعر[1]

الأحزان لا تحصى ولا تعد على الشاعر المكفوف، فلا يجد مهرباً حتى في الأحلام. ولكنه يحاول معها، أن يستخرج منها بعض الأفراح، لذا هو يتمنى أن يمر طيف حبيبته ويعانقه؛ لأنه اشتاق إليها شوقاً كبيراً، كقوله: **(من البسيط)**

ليت الخيال الذي قد كان يطرقني يكون لي بدلاً منه أعَنّقه[2]

هذا البيت يشير إلى النفسية التي يمر بها الشاعر، من معاناة وحرمان دائم من المحبوبة، فهو يريد أن يغير الواقع أو أن يتركه يحلم كيفما يشاء فصار الحلم مثل الواقع في نفسه وشعره، ويقول أيضاً: **(من الوافر)**

ولو أن الخيال ينوبُ عني لأبلغك الكرى قِصصاً طوالا
ولولا أن أدلّس في التلاقي لزرتك حيث تعترف الخيالا[3]

فهو يريد أن يقترب منه طيفه، سواء أكان نائماً أم مستيقظاً، ليشعر بحلاوة اللقاء، فهو عاجز عنه؛ ولكن نصب له الشباك، علّهُ يمر بليلٍ أو نهارٍ فيصيده، يقول:

(1) ديوان الأعمى التطيلي: 71.
(2) ديوان الأعمى التطيلي : 237.
(3) م. ن: 243.

(من الوافر)

بلـى، إن يـدن طيفُـك مـن وسـادي فقـد سـميتها السّـحر الحـلالا
وكيـف يحـسّ طيفـك أو يـراه ولـو نصـبَ الحبائـلَ والحِبـالا[1]

ويأتي بعد ذلك ليثبت، بان النفس تحلم بالليل وبالنهار، وبالنوم وباليقظة. لقوله:

(من البسيط)

رهـنٌ بأضـغاثِ أحـلامٍ إذا هجعـت وربَّمـا حَلِمَـتْ والمـرءُ يقظـان[2]

بعد كل هذه التوسلات الكثيرة، والطلبات العديدة، في أن يرى حبيبته حتى ولو في الأحلام، فإنه لم يستطع؛ لأن أمانيه لن تتحقق، وأن الواقع مصر على أن يسقيه كأس الحرمان حتى في خيالاته وأحلامه، لذا راح الأعمى التطيلي يعلل بأن الطيف هـو الـذي لا يريـد أن يـزوره ؛ لأن المـرأة تمنعـه مـن ذلـك، يقـول:

(من الطويل)

ومـانعتي حتـى علـى النـاي وصـلها لعلك قد صارمت طيفك في وصلي
وقاضـيةً بـالهجر بينـي وبينهـا كأنـك لـم تلـقَ سـبيلاً إلـى العـدل[3]

كره التطيلي الأحلام ككرهه للواقع الذي عاش فيه؛ لان أحلامه تكتظ بالأحزان والهموم والآلام، فهو قلق خائف من كل شيء، ويتمنى أن طيفها لا يمر عليه أو يتـذكره، ويقـول فـي رثـاء زوجـه:

(من الطويل)

ولا تبعـدي إنـي عليـكِ لواجـدٌ ولكن على قدر الهوى لا على قدري
ذكرتـك ذكـر المـرء حاجـة نفسـه وقـد قيـل إن الميـت منقطـع الـذكر
ووالله مـا وفيـت رزءك حقـه ولكنـه شـيء أقمـت بـه عـذري

(1) م. ن: 243.
(2) ديوان الأعمى التطيلي : 218.
(3) ديوان الأعمى التطيلي : 122.

أصيخي إلى الداعي فليس بنازحٍ وما بك عنه من وقارٍ ولا وقر
ولا تبعثي طيف الخيال فانه سمير همومٍ لا يضيف ولا يقري[1]

لقد عبّر الشاعر التطيلي في هذه الأبيات المحزنة المبكية عن فجيعة الذات المستسلمة لذلك القدر، وقد تجلت في أبياته مشاعر الفجيعة من الواقع المؤلم الذي حمل ملامح القلق والخوف من أحلام الموت، لذا يريد التطيلي من زوجته العودة، وإن كان يعلم أن من يموت لا يرجع إلى الدنيا – الواقع -، لذا قد صب سخطه على الزمان الذي حرمه إياها، لذلك استحضر الشاعر، كما في (لا تبعدي، إن الميت منقطع الذكر، أصيخي إلى الداعي) كل هذه الألفاظ المؤلمة، الدالة على عدم الرحيل، جاءت لتنتشل الشاعر من الواقع المؤلم الذي يقع تحت وطأته، مؤكداً بذلك عدم قدرته على مواءمة الواقع الجديد – موت زوجه – والهبوط من العالم المثالي إلى العالم الواقعي[2].

ولو قرأنا شعر ابن جابر الأندلسي لوجدناه يصور لنا الواقع بأنه حقيقة لا يمكن الإعراض عنها، وقد عرف بان الدنيا دار فناء، وأنها حلم غير جميل، والناس عنها في رحلةٍ دائمة، آخذاً بهذا التصور من ثقافته الدينية التي كانت تلازمه في كثير من أبياته، يقول:

(من الطويل)

لعمرك ما الدنيا بدار إقامة فللناس عنها رحلة وذهابُ
إذا ما رأيت الدار ملأى فإنه سينعق فيها بالفراق غرابُ
ومن صحب الأيام كرّت خطوبها عليه وكرات الخطوب غرابُ
وكيف خلاص المرء منها وخلفه خيول الردى يجرين وهي عرابُ
لئن جمعتنا والجماعة رحمة فقد فرقتنا والفراق عذابُ
لقد راع قلبي من تقلب دهره أمور قضت إن الحياة سرابُ

(1) م. ن : 71.
(2) ينظر: التداخل النصي بين السياب ومالك بن الريب، أ. د حسن جبار شمسي، مجلة الأقلام، ع4، 2008م: 58.

أرى النـاس تمضـي واحـداً بعـد واحـد ولـم أرهـم بعـد الترحـل آبـوا[1]

يربط الشاعر المكفوف – ابن جابر – الواقع بالموت، وكأن الواقع لا يحمل إلا هذا الرمز عند الشاعر المكفوف.

أما إذا حلم فإنه يترك العنان لأحلامه وهي تقص علينا مواعظ زهدية في ترك الدنيا وزينتها فهي لا تبقي على أحد، ولا تدوم لشخص مهما كان وأنى كان، ولكن إذا جاء إلى الواقع تزاحمت عليه الصور الحزينة التي ترتبط بالواقع المحزن، وتذكره بالخلان الذين فارقوا الحياة قبله، لذا هو يتذكرهم، ويحن إليهم.

إن ارتباط الواقع بالعاهة شيء لا يمكن إنكاره عند المكفوف فهو يحمل الزمان أو الواقع كل المسؤولية في فقد بصره، لذا يأتي بهذه الصور عند الحديث عنه. أما قوله:

(من الخفيف)

واصـــلوني ولـــو بطيـــف خيـــال هـــدّ هـــذا البُعـــادُ منـــي القُـــوى

ولقـــد شـــتّتت يـــدُ الـــدّهر شـــملي لا تـرى لـي فـي بلـدةٍ مـن ثـوا(*)[2]

فهو يطلب من أحبابه أن يواصلوه ولا ينسوه، ولو بالأحلام؛ لأنه يشعر بأن قواه خارت بسبب هذا البعاد، متهماً الزمان والواقع بشتيت شمله، وإبعاده عن خلانه وأحبابه، ولم يكتفيا بذلك بل حرماه الاستقرار والإقامة، لذا هو غريب حتى في بلده.

لقد قرن ابن جابر الحلم والواقع بالبقاء والرحيل، فقد جعل الدنيا – الحلم – زائلة، وأن مسراتها تنتهي وتتلاشى، وجعل الآخرة – الواقع – حقيقة، تطمح إليها

(1) شعر ابن جابر: 18 – 19.
(*) ثواء: أي اقامة. (الصحاح: ثوى).
(2) ديوان المقصد الصالح: 302.

النفوس الصادقة، في قوله: **(من الوافر)**

هـــي الـــدنيا إذا ســـرّتك يومـــاً تسـوءُك ضـعفَ مـا فيهـا سُـرِرتا
تغـــرّك كالســـراب فأنـــتَ تســـري إليـــه ولـــيس تشـــعر إن غررتـــا
وتشـــهد كـــم أبـــادت مـــن حبيـــب كأنـــك آمـــن ممـــا شـــهدتا[1]

لقد ارتبط الحلم عند الشاعر المكفوف بالمسموع، أكثر من ارتباطه بالمرئي، وهذا حال المكفوف، وقد مثّل الحلم لديه، الوضوح، والتحدي، والازدهار. ومثّل الواقع، الغموض والاستسلام والانكسار.

وقد رأيتُ أن الشعراء المكفوفين يكثرون من استخدام الأحلام ولاسيما أحلام اليقظة، لانعدام الرؤية البصرية، وكذلك قساوة الواقع على الشاعر المكفوف، وأن الواقع دائماً يذكره بعاهته.

أما الأحلام فإنها تكون ملاذاً آمناً، واستقراراً نفسياً يشعر معها المكفوف، بأنه يجوب الأرض بلا عصا، ويتمتع مع النساء دون رقيب، ويميز الألوان دون من يصورها له.

(1) نظم العقدين: 99.